

من تاريخنا العلمي

طالب علم... للأستاذ علي الطنطاوي

— — — — —

قال (محمد بن سعيد) :

— وبيك اتق الله يا أبا فلان . إنك لتوشك أن تقتل هذا الرجل الصالح وتبوء والله بدمه . وبيك اتق الله ، لا تطرده من (فندقك) فإنه غريب نائي الديار ، قطع سباسب ومجاراً ، وجاب ما بين المشرقين ...

قال : أبق بن مخلد^(١) جاب ما بين المشرقين ؟

قال : نعم ، وهل تراني عنيت غيره ؟ إنه حاجتي إليك ، وما سألتك حاجة قبلها ، أفلا تقضيها لي ؟ إنه شيخ جليل القدر يحمل الحديث ويروي السنن ، أفندعه يموت على قاعة الطريق ؟ قال : وما أصنع به أنا ؟ لقد آوبته في فندق عامين اثنين ، لا آخذ منه مالاً ولا أرزؤه شيئاً ولا أعصى له أمراً ، أف يكون جزائي أن أعجب عليه نفسى حتى يموت ، فيخرج من فندق محمولاً إلى القبر فيتشام الناس بالفندق فيتحامونه فأفلس ؟

إنه مريض أنهكت الأوجاع وأدنفته الحى ، ولقد أعجز نقاريس الأطباء ، وما أراه إلا ميتاً العشة أو غداة الفد ... فارحونى ، أفندوني منه ، ليس لي به حاجة ... قبجها الله ساعة أكريته فيها هذا البيت ، لقد كانت ساعة ما حضرها مملك ... قال : اربع عليك أيها الرجل فإنك في نعمة لو عرفت قدرها لقطعت الليل بحمد الله عليها . إنك لا تدري أى خير ساقه الله إليك ، وأى أجر كتبه لك ، فأقم نفسك في خدمته ، وارج وجه الله ، أطمع لك بالجنة

قال : إني والله لني بليّة لو عرفت مداها لما لتني على الجزع منها . إنك لا تعرف هذا الشيخ أى رجل هو ؟ أقول لك : إنه لم يبت عندي ليلة واحدة حتى خرج بخلقان بالية ومزق مخرقه

وركوة وعصا ليسأل الناس ... مالك تضحك من كلامي ؟ ...
أنهزأ بي يا ابن سعيد ؟

قال : لا . ولكنك لا تدري ما شأن هذا الرجل

قال : وإن له بعدُ لشأناً ؟

قال : وأى شأن ؟ هذا رجل هجر جنات الأندلس ورياضها ، وعيونها وأنهارها ، ومكانة له فيها سامية ، وجاهاً له عريضاً ... وفارق أهلاً فيها وصحباً ، وعشيرة كبيرة ، وأموالاً كثيرة ، وذهب بخوض اللجج والبحار ، وبحبوس السباسب والفقار ، ليقدم بغداد ، لا طمعاً بجاه يناله ، أو مال يحصله ، أو صديق يزوره ، أو امرأة يخطبها ، أو لذة يطلبها ، ولكن رغبة في العلم وحبا للحديث ، وشوقاً إلى لقاء أبي عبد الله !

فلما سمع الفندق اسم أبي عبد الله انبته وتبدلت حاله ، وطففت على وجهه خيالات من الحب العظيم ، والإجلال الكبير ، الذى يحتفظ عليه قلبه لهذا الإمام ، وقال بلهجة أرق ، ونعمة أعذب ، قد ذاب فيها حقه على بقی بن مخلد في محبته لأبي عبد الله — أقول إن الرجل قدم من الأندلس ليلقى أحمد بن حنبل ؟

— نعم

— بالله من شرف في الدنيا والآخرة ! وهل لقيه ؟ ألا تخبرني كيف لقيه ؟

قال : إنه نزل عليك في هذا الفندق فألقى فيه متاعه ، وذهب يطلب أبا عبد الله ؛ وكان ذلك أيام المحنة والناس لا يجرؤون على ذكر اسمه ، وأبو عبد الله منفرد لا يلقاه أحد إلا أخذته عيون السلطان فناله أذى شديد ... فلما علم الرجل بذلك ناله من الغم ما الله عالم به ، فأتم المسجد الجامع في الرصافة يسمع من المحدثين فما زال يمرّ بالخلق حتى انتهى إلى حلقة نبيلة ، فوقف عليها ، وكفت أول من رأى زيّه الغريب ، فسلمت عليه أونس غربته ؛ فسألني : من هذا الشيخ ؟

قلت : يحيى بن معين ، وكان يرفه ، ومن لا يعرف يحيى ابن معين ؟ فوقف ساعة ، ثم لح فرجة قد انفرجت فقام فيها ، وكان الشيخ يكشف عن الرجال^(١) فيقوى ويضعف ، ويرك ويبرح ، فقال :

(١) أى رجال الحديث ، وأولئك لسري هم الرجال .

(١) انظر الصفحة (٧٩) من مختصر طبقات الحنابلة طبع دمشق

— يا أبا زكريا — رحمك الله — رجل غريب نأى الديار ،
أردت السؤال ، فلا تستغفني

فقال الشيخ : قل

فجعل يسأل عن بعض من لقي من أهل الحديث — وكان
قد لقي منهم خلقاً كثيراً — فبعضاً زكىً وبعضاً جرح ، فسأله
عن هشام بن عمار وكان قد أخذ أكثر الأخذ عنه ، فقال الشيخ :
— أبو الوليد هشام بن عمار صاحب صلاة ومشق ، ثقة
وفوق الثقة ، لو كان تحت رداءه كبر ما ضربه شيئاً خيره وفضله

فتصايح أهل الحلقة :

— حسبك يرحمك الله حسبك ، غيرك له سؤال

فقال وهو واقف على قدم :

— أكشفك عن رجل واحد : أحمد بن حنبل ؟

فما قالها حتى جمد الناس وعلت الشيخ كآبة ، ونظر إليه
متمجباً كأنه يقول له : أعن أحمد يسأل أحد ؟ وهل تجرؤ
على ذكره ؟ وكان الشيخ قد خالطه نبيء من الجزع ، ثم غلب
عليه إيمانه فلم يمد يبال السلطان وغضبه ، وقال للسائل :

— من أين أنت أيها الرجل ؟ نحن نكشف عن أحمد

ابن حنبل ؟

وسكت الشيخ لحظة ثم قال بجرأة صعب لها الناس ولبشوا
شاخصين ، ينظرون إلى الشيخ بخافون أن تتخطفه جلاوزة
السلطان ...

قال الشيخ :

— ذاك إمام المسلمين وخيرهم وقاضلهم

— ثم إن الرجل ذهب يستهدي الناس إلى دار أبي عبد الله
فنههم من يمرض عنه خشية أن يكون عيناً للسلطان ، ومنهم من
يجرؤ فيمشي معه خطوات ... حتى انتهى إلى الدار

فقال الإعجاب من نفس الفندق كل منال ، وسأله :

— أقول إنه زاره في منزله أيام محنته ؟

قال محمد بن سميد : نعم . قرع عليه الباب فلما فتح له قال :

إني رجل غريب أتيتك من مكان سحيق

قال أبو عبد الله : مرحباً بك — أين بلدك ؟

قال : الأندلس

قال : أفريقية ؟

قال : لا ، أبعد من ذاك ، أركب البحر من أفريقية إلى بلدى

قال : لا جرم إنه بعيد ، فما حاجتك ؟

قال : أسمع منك ، وأروى عنك

قال : ولكنى كما رأيت وعلت ، لا ألقى أحداً ، ولا يدعون

أحداً بلىقانى ، ولست آمن عليك الأذى إذا أنت أتيتنى

قال : ما كنت لأبلى في سبيل الأخذ عنك أذى ولا عذاباً

قال : فإن هم منموك ؟

قال : أحتال بحيلة ، آتيك بزى السؤال فأصيح : الإجر

يرحمك الله ، فتفتح لى وتحدثنى

قال : على ألا تظهر فى الخلق فيعرفوك

قال : على ألا أظهر

فكان يفعل ذلك ، وكنت تظنه يخرج فيسأل الناس

فعاد الفندق يسأل متنبئاً ، وقد كبر الرجل في عينيه حتى

كأن الذى تحتويه غرفته ملك أو وزير ، عاد يسأل متنبئاً :

— إذن فهو من (أصحاب) أحمد بن حنبل

قال : نعم ، وليث على ذلك حتى رفع الله المحنة وولى الأمر

(التوكل) فأحيا المذهب الحق ، مذهب أهل السنة ، وأمات

البدعة ، وجزى الله أحمد بما صبر ، فكان كما تعرف وأعرف لإمام

الامة ، وأيد الله به الدين كما أيد به باب بكر يوم الردة فصار يعرف

لهذا الرجل حقه ويقول لأصحابه : (هذا يقع عليه اسم طالب العلم)

قال الفندق :

— جزاك الله يا ابن سميد خيراً ، فقد عرفتنى حقه ، فهلم

بنا إليه ...

كان بقرى بن غلغل الأندلسى وحيداً في غرفته ، يتقلب من

الأم ، ويتلوى من الحنى ، قد طحطحه المرض ، وهدته الأوجاع

فما أبقت منه إلا هيكلًا كالقناة الجوفاء يتردد فيها الهواء ، ولما

يشكو من الحنين إلى بلده ، والنشوق إلى أهله أشد عليه من كل ذاك

ولم يكن في البيت إلا لبد اضطجع عليه ووسادة ألقي عليها

أسه ، وكتبه مبثوثة من حوله ما يدعها ، إذا أدركه انتباه نظر

ساراكينوس

SARACENUS

للاستاذ محمد عبد الله العمودي



جاء في العدد ٣٢٤ من هذه الرسالة العالية ، كلمة بعنوان
« يا رسول الله » ، (لأستاذ جليل) يتم عليه قلبه !
استهلها بآية من آياته ، وبينت من بيناته ، وتلك قوله :
« إن الدهر قد جار على قوم عرب ١١ »

ثم تقل من (التنبيه والإشراف) للمسمودي هذه النبذة :
« كانت ملوك الروم تكتب على كتبها من فلان ملك
النصرانية ، فغير ذلك تقفور ، وكتب (ملك الروم) وقال هذا
كذب ، ليس (أنا) ملك النصرانية ، أنا ملك الروم ، والملوك
لا تكذب ، وأنكر على الروم تسميتهم العرب (ساراقينوس)
تفسير ذلك : عبيد سارة ، طمناً منهم على هاجر وابنها إسماعيل ،
وقال : تسميتهم عبيد سارة كذب . والروم إلى هذا الوقت (يعني
سنة ٣٤٥) تسمى العرب (ساراقينوس ...) اهـ

وأستاذنا الجليل ، وهو « سباق غايات ، وصاحب بينات »
كان حقاً عليه أن يقف لحظة أمام هذه (الكلمة) فيما لجها
مما لجة يردّها إلى أصلها ، أرى قولاً في فصلها ؛ إذ هذا هجراد
وديدنه في كل ما رقه قلبه البارح في شتى « بجائاته » ... !
ولكنه لم يفعل بل تركها تجري في عبارة المسمودي غامضة الوضع ،
عسيرة الفهم ، ملحقة بذلك التفسير الذي يغلب على الظن
أن المسمودي فسره تفسيراً خيالياً بقوله : « عبيد ساره » أخذاً
من المهجاء الأول « سارا » من كلمة : « ساراقينوس » ،
والدليل على بطلان هذا الكلام عن المسمودي ، وإن كنا لا نستبعد
أن لوجود « سارا » أو « ساره » في بنية هذه (الكلمة) من
أمر ، قوله : « وقال « أي تقفور » تسميتهم عبيد ساره كذب »
لأن ملكاً من ملوك هذه المصفرة لا يمكن بحال من الأحوال
أن يجمل من نفسه مدافعاً عن العرب ، أو يعني بمثل هذا التعميل
وغاية ما في الأمر أن تخيال المسمودي أثر في هذا ، فمن وجود « سارة »
في هذه الكلمة يتبادر إلى ذهن « اللورخ » إلى صورة انحرافية

فيها ، فإذا غاب عنه من الوجع عقله تركها في مكانها ، فلما دخلا
عليه ألفياه يقرأ في صحيفة في يده . جلسا ساعة يؤنسانه فما شمرا
إلا ضجة تدنو حتى حسابها قد استقرت في الفندق ، فنظرا من
الشباك فإذا الرحبة والطرق التي تؤدي إليها ما فيها موطئ قدم
خلا من إنسان . فاضطرب الرجل ونزل يسأل أن ماذا جرى ؟
فما أحسن إلا الناس يقولون : لقد أتى ... هو في الطريق ...
فأيقن أنه الخليفة ، ولكنه رأى موكب الخليفة غير مرة فما رأى
مثل اليوم ... ودنا من شيخ واقف في أطراف الناس فسأله
من القادم ، وأين يذهب ؟

فقال : إنه أبو عبد الله الذي لا يمضي إلى الخليفة ، قادم ليمود
مريضاً في هذا الفندق . فصاح الفندق :

— أبو عبد الله قادم إلى فندق ، أبو عبد الله ؟ وطفق يصيح
ويثب لا يدرى ما ذا يصنع وماذا يقول ، وما يحمله أحد لأن
الناس يتشفون إلى الطريق ينظرون ، وقد احتشدوا فيها فما بقي
بزاز في دكانه ، ولا تاجر في سوقه ، ولا طالب علم في حلقتة ،
ولهم دوى وجلبة ...

وصحا الفندق على نفسه ، فإذا هذا البحر ينشق بقدرة الله ،
وإذا الخلق يسكتون حتى كأن على رؤوسهم الطير ، ويبدو الإمام
ومن حوله طلبة العلم قد احتشدوا من جهات بغداد كلها . بغداد
العظيمة التي يسكنها مليونان وبأيديهم قراطيسهم وأقلامهم
يكتبون كل كلمة يقولها فاتنحى الإمام إلى الترفة ، فوقف على
الريض فقال له :

— يا أبا عبد الرحمن ! أبشر بشواب الله ، أعلاك الله إلى العافية ،

ومسح عنك يمينه الشافية

فتناقل القوم ما قال فكتبوه



ومرّت أعوام بعد ذلك وأعوام ، والناس يذكرون هذا
اليوم الشهود . أما الفندق فقد منذ تلك الزيارة محط رجال العلماء
والكبراء ، ودرت على صاحبه أخلاف الرزق ، وأما بقى فقد شفاه
الله وعاد إلى الأندلس فلأما علماً ...

عن الطنطاري